هل كـان الإمـام الصدر ضرورة ؟

الشيخ د . جعفر المهاجر

من دأب الكبار أنهم يجعلوننا نطرح الأسئلة الكبيرة . بدلاً عن ترك الأمور تسير هكذا على عواهنها . لماذا ؟ كيف ؟ هل ؟ إنهم في فترة نشاطهم يدفعوننا دفعاً إلى سلوك الدروب الوعرة غير المألوفة ، والتخلّي عن الدروب السهلة ، التي وجدنا أنفسنا ، منذ أن وُجدنا ، ونحن نسير عليها ، مقتفين أثر الآباء والأجداد . ثم أنهم بعد أ ن يتوقّف نشاطهم لسبب أو لغيره ، تبدأ مرحلة طرح الأسئلة الحرجة . وهي أسئلة فيها شئ من التحليل ، كما أن فيها شئ من التقويم . التحليل ينظر إلى محاولة فهم الذا ت ، ذا ت هذا الكبير ، ونوا زعها والأهدا ف التي رمت إليها . والتقويم ينظر إلى كم اقترب في سعيه من الأهداف التي رسمها .

لطالما طرحتُ على نفسي السؤال ا لتالي : هل كان الإمام الصدر ضرورة ؟ لست أدري ، وأتمنّى أن أعرف ، كم منكم قد طرح على نفسه هذا السؤال . الإنسان ، القائد ، الزعيم ، يكون ضرورياً عندما لا يكون عنه بديل يعادله ، مثل الأب بالنسبة لولده . هناك قادة وزعماء جيدون ، ولذلك فإنهم يكونون مهمين . ومع ذلك فإنهم قد لا يكونون بالضرورة ضرورة . لكي يكتسب القائد أ و الزعيم هذه الصفة ، يجب أن يشق طريقه الخاص ، ويتنكّب ا لطرق الممهّدة المعبّدة نحو أهدا فه ومراميه . أي أنه يقوم بعملين في الوقت نفسه ،

يشق الطريق ، ثم يسير عليه ساحباً وراءه جمهوره . ذلك هو القائد التاريخي ، الذي يترك من بعده عالَماً غير الذي أتى إليه .

إ ن أنسَ فلا أنسى كلاماً سمعته بحُسن توفيق ، يوم كنت فتى أدرج في عشرينات العمر . دون أن أُدرك في حينه ما فيه من مغازي عميقة . كان ذلك عصر يوم صائف ، وأنا جالس بين يدي جدي الشيخ حبيب رضوان الله عليه ، في بيتنا في " بعلبك " ، وإذا بالسيد يدخل علينا بقامته الفارعة ووجهه الباسم . وعرفنا منه أنه كان قد خرج من " صور" متجهاً إلى " بيروت " ، ومنها إلى الشمال ، حيث زا ر عدّة قرى بجوار " زغرتا " أهلها من الشيعة . ومنها اتجه إلى " الهرمل " حيث التقى عدّة قيادات عشائرية محليّة . وها هو الآن عندنا في " بعلبك " . وسمعت الشيخ يقول كلاماً يُكبر فيه همّة السيد وينوّه بحيويته . ثم إذا به يسأل فجأة ، ولكن ما الغاية ؟

أظن أ ن منشأ السؤال يرجع إلى أُسلوب الشيخ ، الذي كان في ذلك الأوان قد قضى نحو نصف قرن من عمره المديد وهو يملأ بحضوره منطقة واسعة ، تمتد من " عين التينة " في أقصى " البقاع " ، على مشارف " جبل عامل " ، حتى بلدة " الفوعة " في " إدلِب " . ممّا كان يتركه في حركة دائمة . ولكن مع المقام في كل قرية أو بلدة مدّة تتسع للتبليغ ولِما هو من شأنه من شؤون الناس . ولذلك فإنه لم يرَ مقصداً راجحاً في زيارات السيّد السريعة .

واستمعت إلى السيد في الجواب وهو يشرح بإسهاب ، وفي

لهجة لا تخلو من حماسة ، أهدافه ومراميه . وما علق في الذهن من كلامه يتلخّص في وصف وضع الشيعة في " لبنان " . وكيف أنهم يشاركون في وطن ليس لهم يد في صنع أدنى قرار فيه ، مع أنهم أكثرية عدديّة . فضلاً عن مساهمتهم في رفاه البلد ، عن طريق أموال المهاجرين التي تتدفّق في الدورة الاقتصادية للبلد ، لتأخذ معنى دَخل غير منظور ، إلى ما هنالك . وعلّق الشيخ بأن هذا مطلب جيد ، ولكن ينبغي أيضاً إ يلاء إبلاغ الناس وإرشادهم الاهتمام الذي يستحقّه . فضلاً عن ضرورة أن نتحسّس مواطئ أقدامنا كي لا ننزلق. وأتذكّر جيداً تأكيده على أ ن هذا البلد بكامل خصوصياته محروس بدقة من قبل قوى كبرى ، لا قِبَل ولا مصلحة لنا في مواجهتها .

أرجو أ ن لا أكون قد تجاوزت حقي في أمانة المجلس فيما رويت . لكنني أعتقد أيضاً أنني قد أديت شهادتي في أمر كنت شاهده الوحيد . وجه أهميته أنه يضعنا في جو الحوافز الأولى المبكّرة للإمام الصدر ، التي كانت محور حراكه السياسي ـ الاجتماعي فيما بعد .

في سبيل الهدف الكبير الذي رسمه الإمام لنفسه ، اضطر أ ن يخوضها حرباً على عدّة جبهات في الوقت نفسه . متسلحاً بسلاحين : قوة الجمهور الذي أيقظه ، وأصبح هو دون منازع صوته والمالك لقوة تمثيله . وكياسة لا حدود لها ، وجّهت أداءه على مختلف المحاور ومع كل الفرقاء .

الجبهة الأُولى : النظام السياسي ، نظام الامتيازات ، الذي أرعبه

هذا الجمهور، الذي دخل عاملاً جديداً في اللعبة السياسية ، يستحيل استيعابه بالأسلوب التقليدي الذي درج عليه النظام منذ عقود . عن طريق التمثيل والتمثّل السطحيين في مؤسسات السلطة وفي العمل السياسي ، لزعماء محليين قادمين من أيام الإقطاع .

الجبهة الثانية : علماء الدين الذين نظروا دائماً بارتياب كبير إلى الخروج على تقاليد العمل الصارمة لعالم الدين الشيعي . وخصوصاً إلى بناء علاقة مع السلطة . نذكر هنا ، على سبيل التنظير ، أ ن الشيخ علي الكركي ، وهو مَن هو في تاريخ حركة التشيع ، ومع ذلك فإنه عانى الكثير من علماء زمانه ، الذين أنكروا عليه بشدّة علاقته المتينة بالسلطة الصفويّة في " إيران " وقبول الأموال منها . ووُضعت في ذلك الكُتُب ، التي انصرفت إلى بحث حدود العلاقة مع السلطة غير الشرعيّة . أي حصراً سُلطة الإمام . فكيف بالإمام الصدر وشبكة علاقاته الواسعة مع كل الأطرا ف ، وعلى مختلف الصُّعُد . فضلاً عن أطروحته اللبنانية التي سنقف عليها بعد قليل .

الجبهة الثالثة : بعض الزعامات التقليدية التي رأت في وجود ونشاط الإمام ما يتجاوزها . بل ويتجاوز معنى وجودها . نقول هذا مع علمنا بأن بعض تلك الزعامات قد آثر في النهاية سياسة ركوب ظهر الأسد ، على مواجهته في معركة خاسرة بالتأكيد .

أعتقد أن الإمام كان يعي جيداً دقّة الموقف . حقاً أنه نجح في فرض نفسه زعيماً شيعياً من خارج البيوتات التقليدية ، وهو أمر يحصل لأول مرة في تاريخ الشيعة في " لبنان " ، ومع ذلك فإن إخراج المارد من القمقم شئ ، وتطويعه شئ آخر . ولذلك فإنه ، في الوقت الذي

كان كل اعتماده على جمهوره العريض ، فإنه اعتمد سياسة الانتشار الشامل باتجاه الطوائف الأُخرى . خصوصاً الطوائف المسيحية الكبرى والطائفة السُّنّيّة . واتخذ من " الندوة اللبنانيّة " خصوصاً منبراً خاطب من عليه شريحة مسيحية ذات أثر . وركّز بشكل خاص على مفاهيمه للمواطنيّة والوطن . ملتزماً ببراعة صيغاً وأطاريح تطمئن الخائفين ، لأنها تقترب كثيراً من أُطروحتهم ، إن لم نقُل أنها تنافسها وتزاحمها . وهذه أيضاً لغة جديدة على القاموس السياسيّ الشيعيّ .

أخيراً ، تمخّض هذا الوضع المُعقّد عن صدور قانون تأسيس (المجلس الشيعي الأعلى) أُسوة بباقي الطوائف . ثم تلاه غير بعيد انتخاب هيئتي المجلس ، اللتين انتخبتا الإمام رئيساً له .

كان تأسيس المجلس خطوة ذكيّة وفي الاتجاه الصحيح من كل الذين ساهموا فيها وعملوا عليها . ومع ذلك فإن من الممكن لقائل أ ن يقول ، إ ن الصياد كان في نيّة ، والصيد كان في نيّة . أحسن ما فيها أنها أ رضت الجميع : الجمهور الشيعي اعتبرها مكسباً حقيقياً ، وهو الذي كان محروماً من مجلس تمثيلي ، أسوة بما كان ينعُم به غيره من الطوائف . الإمام كسب اعترافاً رسمياً بوصفه رئيساً وممثّلاً لطائفته . أمّا السّلطة فقد كان لها حصتها أيضاً ، ذلك أنها توصّلت عن طريق إنشاء المجلس ، إلى نظم جمهور عريض مُتحفّز ، ذا مطالب مُزمنة ، في مؤسسة لها شكل من أشكال الإشراف عليها . على رأسها رجل أثبت أنه يُحسن الحُسبانات السياسية البريئة من المغامرة . وذلك ومثله من حُسن السياسة . كما أنه أفضل بكثير

جداً من ترك مسار الأمور لجمهور فالت ، لا يعرف أحد إلى أين سيتجه .

لست أُبالغ . إن فاعليّة (المجلس الشيعي الأعلى) كانت محدودة ، كما أنها لم تكن مباشِرة ولا عملانيّة ، بل كانت في أحسن الأحوال معنويّة . صحيح أنه على أثر تأسيس المجلس بدا وكأن الإمام قد بدأ سياسة جديدة تجاه الدولة ، وارتفعت وتيرة مطالبه منها . فتقدّم بمطالب شاملة للجنوب ، منها ما يتعلّق بتحسين إجراءات الدفاع عنه ، وتوفير اعتمادا ت للإنماء وبناء المدارس والمستشفيات . فضلاً عن مطالبته ، لأول مرّة ، بحصة عادلة للشيعة في الوظائف العامة . فلما لم تُلبّ مطالبه ، نظّم إ ضراباً عاماً ، احتجاجاً على الإهمال . وعلى الأثر أنشأت الحكومة (مجلس الجنوب) لدعم وتنمية المنطقة . لكن الحقيقة أ ن حضور المجلس كان من الحضور العريض والعميق لرئيسه . والأمر نفسه يمكن أن نقوله على حركة أمل في بدايتها . لكن ما شكّل الفارق فيما بعد ، هو أ ن حركة أمل ، خلافاً للمجلس ، كانت محضناً ، تربّى فيه المئات الكثيرة من أفضل الكوادر ، القادمين من مختلف الميادين والمناطق . لكنها جميعها من الأوساط الأشد فقراً . بما يُشبه عمليّة غربلة واسعة النطاق ، لفصل أ فضل الحبّات ووضعها في المعجن . هكذا أُ نتجت لأول مرّة نخبة شيعيّة مُسيّسة، ذا ت مؤهّلات عملانية وقياديّة عالية .

يجب علينا الآن أن نؤكّد ، على أن كل ذلك قد جرى تحت شعارٍ كان حتى ذلك الأوان غريباً على الوسط الفكري الشيعي ، أعني

أنه لـم يكـن مـن مكوّناته الأسـاسيّة ولم يكن مـن اللغة السـياسيّة اليوميّـة لأهـله . هـو هـذه النكهة اللبنانيّة القويّة التي أُضافها الإمام عـلى مكوّنات القِدر الشـيعي وهو يغلي تحت وطأة النار القويّة التي سـعّرها من تحته . فلنأخذ في الاعـتبار أن تأسـيس المجلـس هـو بنفسه يحمل نوعاً من إعلان اندماج المؤسسة الدينية الشـيعيّة في تنظيمات الدولة . وهـي التي درجت خلال تاريخها الطويل عـلى التمسّـك باسـتقلالها المطلق . كما أنه عـندما أسّـس حركة أمـل ، بوصفها ذراعاً مسلّحاً لحركة المحرومين ، حـرص عـلى أن يعطيهـا صفة لبنانية فاقعة (أفواج المقاومة اللبنانية). هـذه هي الإضافة الأسـاسـية التي حلّى بهـا الإمام العقل السـياسـي الشـيعي فـي " لبـنـان " . وإ ننـي أ ظـن أ ن الأطـروحـة ما كان لـهـا أ ن تمـرّ بهـذه البســاطة واليُسـر لـو لم يكـن هـو بالـذات وراءها ، بكل ما يُمثـلـه مـن عُـمق شعبي وحضور عـريض . ذلـك أ ن ماضي الشـيعة في " لبنان " ، كمـا في غـيره ، هـو ماضٍ إ سلاموي تقبّل العروبة.واللبنانويّـة نبتـت كأداة لمشروع سـياسي ، لم يكن للشـيعة علاقة بـه يوم كان حملاً ويــوم وُلِـد . ومـذ ذاك غـدت جـزءاً ثابتاً في كل أُطروحة سـياسـية شـيعية .

لـم يكـن ما وصفناه مـن تحوّلات في الجسـم الشـيعي إلا بدا ية . والتفاعلات المتسلسلة الآتية جـرت والإمام بعيد عنها . ومن المؤكـد أنها تجاوزت أجـرأ أحلامه . هكـذا الكبـار، قـد يصنعـون ما يتجـاوزهـم ، فـإذا بهم غـربـاء في عالـم كان ذات يوم فكـرة في عـقولهم .

المهـم أن مُجمل ما جرى كان ثورة حقيقية عـلى صيغة ١٩٤٣ . الـتي قسـمت السـلطة بيـن طـوائـف . تـاركـة أمـر الشـيعة لـزعـمائهـم

المحليين ، مالكي الأراضي . الأمر الذي كان يعني تهميشهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . تلك ثورة حدثت دون ضجيج ، أسقطت عنصراً أساسياً في الميثاق. وبسقوطه تبدّل مفهوم الميثاق بأسره .وبدأت مرحلة جديدة في الحياة السياسيّة لـ " لبنان " .

يجب أن يدخل الإمام التاريخ بوصفه الرجل الذي فكّك ميثاق ١٩٤٣ دون أن ينفجر بين يديه . مع أنه كان قنبلة موقوتة انفجرت فيما بعد ، ولكن لأسباب أُخرى .